

فكاهات

روايت

حفظ العهود (١)

اذا انت لم تعشق ولم تدري ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جليدا
كان في احدى قرى سويسرا المشهورة بجمال مناظرها وحسن موقعها
واعتدال هوائها وعذب مائها فتى غض الشباب من أسرة كبيرة اشتهر
افرادها بالصدق والامانة والوفاء يقال له راعول . وكان لا يميزه عن
اقرانه الا كثرة شقائه وشدة حبه وخيبة آماله فكان في نزاع دائم مع
الايام ولم يكن له من الأبهة لحربها الا نفس اية وهمة لا تعرف الولاء
وقلب لا يمل من الامل وتوقع الفرج وادراك المني . وكان قد حدث له في
اول ايامه انه احب فتاة كان يظنها موضع آماله وعنوان سعادته فاخلصت
له الحب اولاً ثم غدرت به وعكفت على حب غيره من الشبان فكانت
كالنحلة التي تقع على كل الازهار دون تمييز بينها على شرط ان تبني منها
عسل الساعة . فشق عليه خيانة الفتاة ومذ ذاك شعر كأن قلبه قد تحول
الى حجر وان الحب لن ينفذ اليه من بعد ولم يلبث ان رأى الفتاة قد
صارت زوجة لاحد الذين اصطادتهم باسراكها فتزع خيالها من فكره ونسي
انه هام قبلاً بها وربما كان النسيان من افضل انواع العقوبة للخيانة

ثم مرَّ على ذلك زمنٍ ليس بقصير وظن راعول ان قلبه أصبح مدفناً
للحب ولم يعلم بما خبأته له يد الاقدار . فاتفق ذات يومٍ ان أسرة قدمت
تلك القرية لقضاء ايام من فصل الصيف وكان بين افرادها فتاة في زهرة
الصبا يقال لها نينا فتدرف راعول بها وبذويها فافضى التعارف الى الزيارة
ثم الى الالة وتمكنت بينه وبينهم صلات الصداقة المحكمة ولم يمض بعد
ذلك الا القليل حتى شعر بعاملٍ قوي يجذبه الى مجالسة نينا والتقرب اليها
وأحسَّ بخنوق في قلبه كلما سمع صوتها او قابل نظره نظرها فلم ان جرثومة
الحب التي كنت في قلبه قد اخذت تستيقظ للحياة فنفضت عنها غبار
الموت وبدا الحب في معظم قوته وكمال شدته حتى ملأ فؤاد راعول ومست
شرارة منه قلب نينا فاضطرم واصبح القلبان يتقلبان على نار الحب الصادق
والحياء يمنع الواحد منهما عن مكاشفة الآخر بما في ضميره .

واتفق ذات ليلة ان جماعة من زوَّار القرية خرجوا للتنزه في نور
القمر وكان بينهم اهل التقى والثناء فقدر لراعول ان يسير مخاصراً لنينا حتى
اذا اعيهاها المسير جلسا على صخرة كبيرة فوق تلٍ صغير مشرف على وادٍ
عميق وكانت الطبيعة بادية امامهما باجل مظاهرها وكانها كتاب مفتوح
لا يُقرأ فيه الا آيات الحب وكان النسيم العليل لحن غرامي يذب القلوب الى
الهيام فلم يشعرا الا وقد باح كل منهما الآخر بسر هيامه وتعاهدا على
الحب والوفاء واقسما بحضرة الله يميناً أكيدة بان لا يخون احدهما الآخر
ولا يترك عن حبه مدة الحياة ثم ختما العهد بقبلة حارة اشتركت في رسمها
على الشفاه كل قوى نفوسهما الملتزمة بنار المحبة الصادقة

وبعد مرور بضع دقائق استفاق العاشقان من خمرة المسرة وانتبه راعول الى نفسه فشعر كأن سهماً اخترق فؤاده فأجفل وحاول الابتعاد عن حبيبته كمن جنى أثماً كبيراً ثم قال لها وهو لا يضبط انفاسه اغفري لي يا نينا فقد أسأت اليك وانسي اذا استطعت ما جرّس بيننا في هذه الساعة . قالت هل ندمت على عهودك ورغبت في ان تتبرأ من يمينك . قال لا ولكنني اخاف عليك من حيي واخشى ان يكون سبباً لشقاءك عوضاً عن ان يكون باعثاً على سعادتنا . ثم اني لا اخفي عنك اني لم اكن موفقاً في الحب فقد احببت في ماضي ايامي مرتين وكانت صفقتي في كليهما خاسرة . وفوق كل ذلك فانا الآن صفر اليدين ليس لي من المال ما يؤهلني لأن اكون رب بيت وفي هذه الايام لا كرامة الا للغني ولو كان لثيماً وابن لثيم فهل تظنين ان قومك يرضون عن حبنا متى عرفوا بضيق ذات يدي . قالت ان قومي يحترمون في الشخص آدابه وشرف نفسه وكرامة اخلاقه ونبله واجتهاده وهي صفات تفضل كل الغني بل هي جالبة للمال على ما اظن وفضلاً عن ذلك فانا قد احببتك بكل ما في جسدي من الحياة وما في حياتي من قوة الحب فان كنت انت قد احببت مرتين فانا لم اعرف الحب الا هذه الساعة وقد كان قلبي قبل ان عرفتك صحينة بيضاء فانت اول من خطّ فيها آية الحب باحرف نارية وانت اول من مسّ بشفتيه شفتي بقبلة الحب المحرقة وستبقى انت وحدك حبيباً لقلبي الى ان يفصلنا الموت . قال اتعاهدني على الامانة والصبر والثبات الى ان يقدر لي الله الحصول عليك فان الحب يولد العجائب ولا بدّ لي من مكافأة الزمان حتى

انال منه غنيمةً تليق بان ألقها عند قدميك وتساعدنا على قطع مرحلة العمر . قالت اني رضىتك لي حبيباً غنيا كنت او فقيراً فلا انكث لك عهداً ما دمتنا في هذا الوجود . قال اني اصدق كلامك وانت منذ الآن جزء من حياتي فألقي بين يديك قلبي وسعادتي وآمالي فاحفظي الوديعة الى ان يمن الله علينا باللقاء الذي لا فراق بعده . ثم انتهت المفاوضة بتجديد العهد والايمان وتكرار القبلات الحبية

وبعد يومين عاد اهل الفتاة الى مدينتهم فكتبت نينا الى راعول تقول اني راجعة مع قومي الى بيتنا ولكني ابقي معك قلبي فكن واثقاً باماتي وأرني منك مثلها الى ان يمن الله بالجمع بيننا

* * * * *

اما والذبي ابكى واضحك والذي امات واحيا والذي امره الامر لقد تركتني احسد الوحش أن ارى أليفين منها لا يروعهما الذعر في هذه البسيطة قوم لا يطيقون رؤية حبيبين سعيدين في حبهما فلا يفترون عن دس المفسد والقاء الضغائن حتى يحولوا سعادة الحب الى شقاء وحلاوته الى مرارة . اندفعت السنة الوشاة على راعول ونينا بالثلب والوقيعة واثنوا على والديها واسرتها باللوم والتعير لميلها الى رجل من ذوي الفاقة والخنول حتى حالوا دون لقاء الحبيبين ومنعوا اتصال المراسلة بينهما فوقما من جرّاء ذلك في ضنك شديد وعلا النحول جسديهما وخطت اقلام الدهوع في صفحات وجناتهما اسطر الشكوى فلم تجففها زفرات انفاسهما الملهبة . وكان رجل يقال له اميل من اصدقاء الاسرتين قد وقف على بعض الخبر

وكان يودّ راعول مودةً أكيدةً ويتردد عليه في أكثر الايام فافضى اليه راعول بسرّه واطلعه على ما يضمّر من الحب لنينا وما يقاسي من لوعة الهجر لحؤول الوشاة بينهما فعزم على التوسط لاصلاح ذات البين وتحقيق آمال العاشقين

ولما رأى والدها نينا انها لا تزداد على اللوم والتقريع الا تعلقاً بحبيبها وان البعد بينهما لم يكن الا سبباً في اشتداد حنينها اليه وسقمها به عزماً على ان يأتيها الامر من وجه آخر فجعل يكثر انب من المآدب والدعوات والايالي الراقصة يدعوان اليها نخبة الشبان من معارفهما وانساباً لعلها تتلاقى بواحد ممن يريانه اهلاً لمصاهرتهم . فكانت نينا تجد في ذلك كله من الكرب والمضايقة ما يزيد فؤادها عذاباً وعيشها تنغيصاً لانها كانت تفضل صبيحة راعول على كل ما في العالم من دواعي المسرة واللذة . لكنها رأت بعد ذلك ان اصرارها على ذرف الدموع والخلوة بنفسها المتشبه بحبيبها لا يزيد ذويها الا تشبهاً بمثل تلك المعاملة فاخذت تجامل زوارها وتجتهد ان تلب قوة ارادتها على رقة فؤادها فتظاهرت بنسيان راعول واستبشر اهلهما بنجاح مساعيهم

اما راعول فكان محباً مهجوراً لا أليف له ولا مؤازر ولا من يعسني الى تنهداته او يرق لشكواه ويرحم فؤاده الكسير فغلب عليه النحول واصبح حائرّاً لا يعلم ماذا يفعل وانحصرت قوى عقله في تذكّار ماضي ايامه السعيدة بقرب نينا حتى اصبح هيامه بها شغلاً ملازماً لم يترك له فرصة للاهتمام بامر آخر . وكان ظنه ان نينا ستنكث عهدها معه وانها ستقترب بسواه يذيب فؤاده جزعاً فيتأوه ويتحسر ولا يشكو لنير الله امره حتى

غلب عليه الشقاء فسقط في وهدة اليأس وخيف عليه من الجنون
ولما اشتد به الضيق لم ير بداً من الكتابة الى نينا فارسل اليها يقول
« ان سكوتك الطويل قد اعدمني الصبر واحرق فؤادي وكنت معتادة
ان تكتبي اليّ من وقت الى آخر فلم هذا الانقطاع . أليس من الحرام ان
تريني اشوى على نار الهجر ولا تمدّي يداً لا تقاذي . ان كلمة منك تردّ
اليّ رمقي فاكتبي لي بواسطة صديقنا اميل فانه عالمٌ بحبنا راض عنه راجب
في المساعدة متى ازف وقتها . اني لاشك البتة في صدق حبك ومواعيدك
ولكنني اذوب شوقاً الى سطرٍ بخط يدك يجدد لي حياة الامل بقرب
اللقاء ... »

ثم مرّت الايام ولم يرد الجواب المنتظر فقلق راعول اشدّ القلق وخشي
ان تتحقق اشاعة بعض المرجفين بان نينا ستخطب عن قريب لاني من
اصدقاء قومها . وفيما هو يتقلب على نار الانتظار اذ دخل عليه اميل
وقال كنت وعدتك ان اكون مدافعاً عنك مساعداً لك في حبك عاملاً
على صلة الحب بينك وبين فانتك وكنت اظن اني اخدم بذلك قلبين
يحبّان حقيقة حباً يفوق كل وصف اما الآن فاقول لك بكل صراحة انك
خدعتني باقوالك ومن الآن انفض يديّ منك فلا تعتمد على مودتي
ولنحسب بعضنا معارف لا اصدقاء . فقال راعول متعجباً وما سبب هذا
الاتقلاب . قال وصلني اليوم كتاب من نينا تقول فيه انك كتبت اليها
تكلفها ان تعود الى مراسلتك بواسطتي وامرتني ان اقول لك انها لا تقبل
منك كتاباً ولا تريد ان يكون بينك وبينها علاقة فاذا كنت تعامل نفسك

بالاقتران بها فانزع هذا الامل من فكرك واعلم ان ذلك لا يتم البتة
 فاحسب الماضي حلاًماً عبر . فقال راعول وكيف يمكن ذلك وقد عاهدتني
 العهود الوثيقة على ان تكون لي كما انا لها وحياة كل واحد منا وقف على
 الآخر فلا يحول احدا عن مودة صاحبه ولو اجتمعت قووات الارض
 ضدنا . بل الذي اتيقنه ان الكتاب الذي اشترت اليه ليس منها فانها اظهر
 من ذلك ذمة وافي عهداً . قال لكن الامر على ما اقول لك وقد علمت
 عن يقين ان التي تهالك في حبها قد غدرت بعهدك واعطت يمينها لسواك
 وفي رأيي ان تنزع حبها من قلبك وتسلوها وقد علمت ان لا تشق
 بعهد انثى . قال هذا ثم تناول قبعته فلبسها وخرج

* * * * *

مت شوقاً فأحيني بوصالٍ اخبر الناس كيف طعم الممات
 قضى راعول مدةً من الزمن وهو كالمأخوذ لا يطيب له مقام ولا يلتذ
 بطعام ولا بمنام وكانت انياب الشك تمزق فؤاده ونار الهجر تحرق
 احشائه لانه لم يستطع تصديق ما روي له من ان نينا قد زهدت في حبه
 ورغبت في سواه . وكان تذكار ماضيه يحرمه كل راحة فكان خيال نينا
 لا يرح نصب عينيه فيتذكرها في كل ساعة من حياته في اليقظة والمنام
 ويتمثلها جالسة اليه يترنمان بألحان المسرة او يطالعان حديث اهل الغرام
 السالقين او يسيران متنزهين في العربة او جرياً على الاقدام في نور القمر
 فيرى في كل هذه الاحوال حبيبته بقربه اما ماشية تستند على ذراعه او
 جالسة وقد اقلت رأسها على صدره الخافق فيضطرب فؤاده اضطراباً

شديداً ويظن ان صدره يكاد ينشق من شدة الوجد . ثم ينظر الى حالته الحاضرة فيرى نفسه وحيداً مهجوراً بلا خلٍ يؤاسيه ولا شفيقٍ يسليه ولا عينٍ تبكيه فينفطر قلبه حزناً وتثور في رأسه سورة الغيظ فيود الانتقام ممن حال بينه وبين حبيبته ثم تخمد فتنة عواطفه فيرتعد وجلاً وتنفجر دموع الحزن من عينيه كأنه يبكي غصن شبابه المقصوف او زهرة حبه المقطوفة او يحاول بالدمع اطفاء نيرانه المحرقة

وفيما كان راعول على الحالة التي صرّ ذكرها كان ثلاثة من الشباب يترددون الى بيت نينا ويواصلون الزيارة فكان راعول يراهم داخلين او خارجين فيندوب قلبه كمداً . وفي ذات يوم سار راعول على غير هدى وهو لشدة بلواه يحدث نفسه في امر الانتحار للنجاة من الشقاء الذي ألمّ به فرأى جماعة من السيدات والرجال يسرون ضاحكين مقهقهين كأن الكتابة اسمٌ لغير مسمى او اسمٌ لمسمى لم يعرفوه . فوقف يتأملهم واذا به يرى نينا مستندة على ذراع احد الرفقة وهي ناحلة القوام صفراء اللون فلما ابصرته تنفست تنفساً عميقاً ثم اغضت من بصرها مطرقة الى الارض فلما رآها كذلك اعرض عنها بوجهه وقد طفح الدمع على خديه ورجع الى منزله وهو غائب عن الرشد لشدة آلامه النفسانية فوجد على مائدته رسائل وجرائد اتاه بها موزع البريد فاخذ يطالعها كمن يحاول التشاغل عما به من الوجد والالم فوقعت عينه في احدى الجرائد على الخبر الآتي « يوم الخميس الآتي يحتفل في . . . بزفاف السيدة نينا . . . الى الخواجا باستور في الساعة التاسعة مساءً »

فلما قرأ هذه الكلمات شعر ان الدم جمد في قلبه وفارقة صبره وثباته
 فاستلقى على سريريه كالمذنب الذي يتوقع انطفاء نور حياته لينقلوه الى ضريحه
 وفي اليوم المعين لصلاة العقد اجتمع المدعوون وكان منزل العروس
 مزينا بالانوار الساطعة مكالا بالازهار الجميلة والناس يمرحون طرباً وبينهم
 المغنون والراقصون والموقعون على آلات الطرب والسقاة يطوفون باقداح
 المسكر . حتى اذا دنت الساعة جاء العروس وآله فوقف بجانب نينا امام
 الكاهن فاقبل الكاهن على العروسين يسألها عن رضى كل واحد منهما
 بصاحبه كما هي العادة فلما انتهى في السؤال الى نينا لم يكن من جواب فاعاد
 عليها السؤال فرفعت رأسها ونظرت اليه كأنها تريد ان تقول شيئاً ثم
 ارتعشت وسقطت الى الارض منشيئاً عايتها فاسرع الحضور لانهاضها فاذا
 هي جثة بلا روح . فارتفعت الاصوات من كل ناحية وازدحم الجمع ليروا
 ما حدث وبيناهم في ذلك اذ سُمع طلق رصاص في احدى زوايا المكان
 فانصرف القوم الى جهة الصوت واذا راعول ملقى على الارض يختبط بدمه
 وقد اخترق الرصاص دماغه . فانقلب العرس الى مأتم واقبل الحاضرون على
 آل العروس يعزونهم عن مصابها وهم بين آسف على شباب الحبيبين وبين
 لاأثم لذويها على دخولهم بين ذينك القلبين اللذين ارتبطا بصلات الحب
 وعهود الولاء . ولما حان وقت الدفن حملوا الجثتين الى المقبرة وبعد الصلاة
 عليهما ابى الحاضرون الا ان يُدفنا في ضريح واحد ثم انصرف الجمع وهم
 يندبون شبابهما ويدعون لهما بالرحمة والغفران